أنطولوجيا الاحتضار
الموت بوصفه ظاهرة فيزيائيَّة وحقيقة ميتافيزيقيَّة

شريف الدين بن دوبه
أستاذ الفلسفة بجامعة سعيدة/الجزائر

ملخص إجمالي:

الموت ظاهرة طبيعيَّة وحقيقة فيزيائيَّة لا يمكن إقصاؤها أو إنكارها. والمفارقة في هذه الظاهرة أنَّه لا يمكن إثباتها أو تفسيرها من زاوية نظريَّة وعلميَّة، فهي واقعة أنطولوجيَّة تشاهد وتخبر يوميًّا، وفي كلِّ اللَّحظات. ولهذا، فإنَّ طبيعة الموت وحقيقته مسألة ميتافيزيقيَّة بالأصالة إذ لم يتمكَّن أحد من العلماء أو الفلاسفة تفسيره بطريقة قطعيَّة، فالكلُّ يجعل منه ظاهرة قابلة للاحتمال والإمكان. أمَّا في المجال الدينيِّ، فنجد بعض معالمه التقريبيَّة، وهذا يدلُّ على أصالة المعرفة الدينيَّة وضرورتها في تفسير المشاكل الطبيعيَّة والإنسانيَّة.

في هذه الدراسة، نسعى لبيان البُعد الميتافيزيقيِّ للموت. وسننظر إليه من جهتين: أولاً بوصفه ظاهرة بيولوجيَّة طبيعيَّة يتبدَّد معها الجسد الإنسانيُّ ويضمحلّ، ومن جهة ثانية بوصفه حقيقة ميتافيزيقيَّة ظهرت مبانيها في المنظومة الدينيَّة بأشكال ومعارف واعتقادات بيِّنة في الرسالات الوحيانيَّة والكتب المقدَّسة. وهكذا، فإنَّ المفارقة التي عجز الإنسان عن إيجاد حلٍّ لها، حاضرة وغائبة في الوقت نفسه.

مفردات مفتاحيَّة: الموت، واقعة، الطبيعة، الغيب، ميتافيزيقا، القانون العلميّ، النسبيَّة.

العدد التاسع - 1446هـ - ربيع 2024م

تمهيد

ماذا؟ لماذا؟ كيف؟ أدوات استفهام بسيطة تزعج النفس في ميلها إلى السكون ونزوعها في البحث عن الاستقرار بعيدًا عن كلِّ قلق أنطولوجيٍّ؛ فالأصل في الطبيعة البشريَّة السؤال والتساؤل، وهو ليس حالة عرضيَّة تعتورِ الإنسان في لحظات مؤقَّتة، بل خاصّيَّة هوويَّة (أي بنية رئيسة في تشكيل الهويَّة الإنسانيَّة).

ولا بدَّ من القول هنا أنَّ الطبيعة المستقلّة عن الذَّات المدرِكة، أو ما يُصطلح عليه بالعالم الخارجيِّ، كانت الحقل الأول الذي شملته الأسئلة الإنسانيَّة وِفقًا للقراءة الغربيَّة للتاريخ التي تجعل من مبحث الفيزيقا منطلقًا للتساؤل الفلسفيِّ ومدخلاً للميتافيزيقا الكلاسيكيَّة. ويثبت ذلك تاريخ النحت المفهوميِّ للمصطلح مع اندرونكوس الرودسيِّ في القرن الأول قبل الميلاد. مع الإشارة إلى أنَّ مرجعيَّة البدء في الاهتمام بالوجود الطبيعيِّ تعود إلى الحاجة الطبيعيَّة التي تشكِّل البنية التركيبيَّة للطبيعة البشريَّة والتي كان عنوانها الحرمان والرغبة في حيازة المفقود الذي ليس هناك بدٌّ في الاغتناء عنه.

أمَّا الحقل الثاني الذي شملته العناية الإنسانيَّة بالبحث والتفكُّر هو الإنسان نفسه، وقد تمَّ تحويل وقائعه فيها إلى ظاهرة بدأت بالفهم مرورًا بالتفسير إلى روم التقنين؛ ولكن تاريخ العلوم سجّل لهذا المسار رجَّات وعثرات مفهوميَّةٌ ومنهجيَّةً ونظريَّة. ويثبت تعدُّد المقاربات الميتودولوجيَّة في التعاطي مع الظاهرة عسر ولادة نظريَّة اجتماعيَّة تقترب من الناموس الذي يضبط الظواهر الإنسانيَّة. وإذا نظرنا إلى وضعيَّة العلوم الإنسانيَّة في الواقع البحثيِّ الرَّاهن فنجدها مازالت تعايش التراتبيَّة، فهي لا تحتلُّ إلَّا المراتب الدنيا في تصنيف العلوم المعاصر لأنَّ المنظور المادّيَّ للمعارف والعلوم مازال حاضرًا بقوَّة في المخيال البشريّ.

في هذه الدراسة، نروم الوقوف عند مسألة نعتقد أنَّها كانت المبدأ في كلِّ بحث معرفيٍّ، ومعبرًا رئيسًا انتقلت وتدرَّجت فيه المعارف، ألا وهو الموت الذي لم ينل حقّه من البحث بما يتناسب مع أهمّيَّته وخطورته الأنطولوجيَّة، فإذا كان الوجود تعيُّنًا وتحقُّقًا يروم الوجود أو البقاء والاستمرار في الوجود، فإنَّ الموت أنطولوجيًّا يشكّل القلب الرئيس لهذا الوجود من حيث الدافعيَّة قَبليًّا والغائيَّة بعديًّا. فعلى مستوى القَبل، اشتغل واجتهد في تلبية متطلِّبات غرائز الوجود، إذ إنَّ البشريَّة لم تشتغل إلَّا تحت تهديد فكرة الموت، أمَّا في محلِّ البُعد من حيث طلب الارتقاء وتطوير الذات والملكات فيكون الموت معبرًا لمعاينة الشخصيَّة في مرحلة ما بعد الوجود، أي اللَّحظة التي يكون فيها مدخلاً وسفينة انتقال إلى عالم الشهود الذي كان في القَبل غيبًا.

تبدأ الدراسة بوقفة تأثيليَّة عند دلالات الموت المتعدِّدة والتي تعكس تشظّيًا في الفهم البشريِّ،

وإن كانت الدلالة المشتركة في جلِّ السياقات اللُّغويَّة والاصطلاحيَّة هي النهاية والانتقال، ثمَّ ننظر قليلاً في عالم المادَّة على قاعدة الحسّيَّة التي تملأ هذا الواقع البحثيَّ لقضيَّة الموت، من توقُّف نبضات القلب، إلى موت الخلايا العصبيَّة، إلى ما تنفتح عليه البحوث التجريبيَّة من نتائج في حقل العضويَّة المركَّبة التي وقفت متحدّية ذلك الشموخ الواهم الذي ابتناه على العقل الذي لم يدرك بعد شيئًا عن طبيعته وحقيقته. وبعد عالم المادَّة نشرع في السباحة في فضاء المجرَّد مع أنطولوجيا الموت كوجود أنطولوجيٍّ، وكمنظومة معرفيَّة تتعالى على كلِّ تحديد مفهوميٍّ، ومتحدّية لأيَّة قراءة مؤدلَجة سواء كانت مشتقَّة من الدين أم من الثقافات الشعبيَّة المجتمعيَّة.

الوحدة في التشظّي

الموت: Mort . Death . Mors .Mortis

اللُّغة وثيقة مرجعيَّة لاصطياد دلالات الحدِّ الذي نروم الوقوف عند معانيه واستجلاء مقاصده، ومعتمد تاريخيٍّ في استقراء مسار المفهوم في مستوييه: الخطيِّ الأفقيِّ التزامنيِّ السانكرونيكيِّ والعموديِّ اللَّاتزامنيِّ (الدياكرونيكيِّ). فمن المستوى الأول تعكس لنا اللُّغة ثقافات الأمم أي ما أنتجته يدُ الجماعة وعقلها كما عبَّر عن ذلك علماء الاجتماع في مقاربة المنتوج الثقافيِّ المادّيِّ والمعنويِّ، فداخل الكلمات والرموز يختبئ الإنسان؛ فالمنظور الفرديِّ والجماعيِّ للكون يستنطق من اللُّغة.

الموت في المعاجم والقواميس ينظر إليه كحدٍّ مضادٍّ للحياة، فهو فقدان الحياة عند من له ملكة الحياة، وقد جاء في «لسان العرب»: « المَوْتُ والمَوَتانُ ضِدُّ الحياة. والمُواتُ، بالضم: المَوْتُ..»[1]

وفي اللِّسان تفرقة بين كلمة ميّت ومائت نلمس فيها تمييزاً بين الموت كواقعة، والموت كأعراض، « فالمائتُ: الذي لم يَمُتْ بَعْدُ. وحكى الجوهريُّ عن الفراء: يقال لمنْ لم يَمُتْ إنه مائِتٌ عن قليل، ومَيِّتٌ، ولا يقولون لمن ماتَ: هذا مائت».[2]

وتأخذ دلالات الموت في الاتِّساع، فمن مفارقة للجسد – البعد المادّيِّ – إلى تهذيب للنفس وارتقاء للروح وهذا ما سنقف عنده في السياق الميتافيزيقيِّ والعرفانيِّ لظاهرة الموت، فأيُّ تعريف أوليٍّ للموت في القواميس ينطلق من دلالة فكِّ الارتباط مع العضويَّة كآلة للحياة، فهو: «صفة وجوديَّة خلقت ضدًّا للحياة».[3]

[1]- ابن منظور، لسان العرب، المجلَّد الثاني. دار صادر الطبعة الثالثة، بيروت. 1414 هـ /1993 م . ص.ص: 90-91 .
[2]- ابن منظور، مصدر سابق، ص: 91 .
[3]- الجرجاني، علي بن محمد بن علي التعريفات، دار الكتب العلميَّة، بيروت 1983 ص:304 .

أمَّا أنتروبولوجيًّا فالتقاطعات التي تظهر في الكلمات والعبارات التي تحدَّثت عن الموت بينها وبين كلمة الأم، والإله والآلهة، فالجذر الذي يجمع بين هذه الحدود هو حرف الميم (م) في الُّلغة العربيَّة و (M) في الُّلغات اللَّاتينيَّة وغيرها عايش تطوُّرًا أنتج مفاهيم وحدود أخرى مثل الألوهيَّة:».. إنَّ لفظة أم لفظة مشتركة بين الأم والإله والماء، وهذا في لغات كثير وجذر أم هو جذر (م) الذي يتطوَّر إلى (ن) (L) (N) ومنه يشتقُّ اسم الألوهيَّة في ديانات كثيرة: آمون، مانا، مين، آمين، آشمان.. وإذا قارنا كلمة الأم والموت في الُّلغة الفرعونيَّة فنجدهما تشتركان في الُّلفظة نفسها وهي موت.. والُّلغة البربريَّة تمنح للموت اسم **تامثانت**، وهذه الكلمة قريبة من حيث جذرها بالكلمة الفرعونيَّة والجذر المشترك بينهما هو (مت) (Mt)..وفي الُّلغة الفرنسيَّة نجد الجذر نفسه (مر) (Mr) الذي تشتقُّ منه تسمية الأم Mère وتسمية الموت Mort..».[1]

وفي الحضارة الفينيقيَّة منح الموت حضورًا أنطولوجيًّا يقابل فيه إله الحياة والخصب (**بعل**):» نظام الفينيقيين العقائديّ قام على ثنائيَّة واضحة بين الموت والحياة، فإذا كان بعل هو إله الحياة والخصب فيقابله موت إله العالم السفليِّ إله القحط والجفاف، ويُسمَّى المكان الذي يسكن فيه تحت الأرض حمري» أي جهنم الحمراء، وهو مليء بالجمر والنار. ويُنظر إلى هذا الإله كمخلوق طماع مفترس لا تشبع شهوة الطعام لديه».[2]

وإذا وقفنا عند الأفارقة في تفسيراتهم لظاهرة الموت لوجدنا تقاطعات بينهم وبين باقي المجتمعات الإنسانيَّة في النظر إليه كواقعة طبيعيَّة وغير طبيعيَّة في آن واحد، والذي يمنح البُعد الإشكاليَّ للموت، سواء تعلَّق الأمر بالدلالات أم بالمقدِّمات الضروريَّة له أي أن نموت، وهذا ما لاحظناه في الُّلغة العربيَّة حين ميَّز علماء الُّلغة بين الميت الذي مات فعلاً والمائت وهو الشخص المحتضر أو المقبل على الموت. فالأفريقيُّ كما يقول جون إس مبيتي[3]* John Mbiti «.. يتقبَّل الموت باعتباره جزءًا من الايقاع الطبيعيِّ للحياة، ومع ذلك فإنَّ كلَّ حادث موت يفكِّر فيه أن له أسبابًا خارجيَّة، ويجعله طبيعيًّا وغير طبيعيٍّ معًا.. ويعزى عمومًا الأمر إلى السحر والشعوذة وعمل العرَّافين والذي يوجد في كلِّ المجتمع الأفريقي وإن كان بدرجات مختلفة».[4]

ولمعرفة طبيعة الموت عند الأفارقة لجأ علماء الاجتماع إلى قراءة التعابير التداوليَّة في القبائل الأفريقيَّة، والتي تشير إلى اعتبار الموت انتقال إلى عالم آخر مغاير من حيث البنية التكوينيَّة عن العالم الأول الذي نعيش فيه، والنص التالي يوضح ذلك:»..في أوساط الباسوجا يقال للميت إنَّه

[1]- بوساحة أحمد، حقيقة الموت في نظر الديانات، دار الانتشار العربي، بيروت .2008 ص.ص:16-17-18.
[2]- أحمد ماجد. الموت في الحضارات القديمة. مجلَّة «المحجَّة». معهد المعارف الحكْميَّة، العدد: 17 السنة 2008 ص:42.
[3]- فيلسوف كيني.
[4]- جون اس مبيتي، الأديان الافريقيَّة والفلسفة، ترجمة إيناس طه، المركز القومي للترجمة.2023 ص:223 .

قد تنفَّس آخره وأنَّه تمَّ جعله ساكنًا ولقد ذهب وذهب إلى أسفل في القبر، وإذا كان رجلاً كبير السنِّ يقولون: إنَّه عدل لقد مات وقد أكل بما فيه الكفاية.. وإذا كان الموت لقاتل أو ساحرة يقولون:» اجعله يذهب لقد انتهت وظيفته»، وفي عبارة أخرى: «فمٌ آخر ذهب بعيدًا».[1]

نلاحظ هنا تشابهًا في معاني العبارات المستعملة في المجتمعات العربيَّة عند التعبير عن موت الأشخاص باعتبار المكانة والدور الذي يلعبه في المجتمع. فوفاة عالم ليست بالقدر نفسه مع هلاك ظالم أو فاجر، فالأول ثلمة وثغرة في البناء الاجتماعيِّ للمجتمع، والثانية استراحة ونهاية فساد.

وانطلاقًا من الحمولة الثقافيَّة والرمزيَّة المتنوِّعة التي تملكها البشريَّة، فإنَّ كلَّ ما لدينا حول الموت يكون متضمّنًا لدلالات رمزيَّة زئبقيَّة زادت من صعوبة الوقوف عند إدراك محدّد لظاهرة الموت، والنظرات التي تعاطت مع الموت لا تخرج عن نظرتين:

النظرة الأولى: ترى في الموت عودة وذوبان الأنا الفرديِّ في الكليِّ الذي تمَّ التعبير عنه بصياغات متعدِّدة تلتقي في مقصد الدلاليِّ واحد. (الأنا المطلق، العقل المطلق، الحقيقة المطلقة، أو الله). وفي سياق التدليل، نستأنس بأمثلة نعتمد فيها على دراسة للباحث اللبنانيِّ الشيخ شفيق جرادي استرسل فيها مبيّنًا جلَّ النماذج الثقافيَّة التي تبنّت هذا التصوُّر:».. وجهة نظر التراث الهندوسيِّ الفرد بعد تحرُّره من دورة التناسخ يكفُّ عن الوجود بما هو كذلك، ويندمج بالوجود اللَّامتناهي.. وعند هيغل الموت هو الحبُّ ذاته، ففيه يتكشَّف الحب المطلق، إنَّه وحدة ما هو الهيب مع ما هو إنسانيٌّ، وأنَّ الله متوحِّد مع ذاته في الإنسان في المتناهي وعبر الموت صالح الله العالم، ويصالح ذاته للأبد مع ذاته».[2]

النظرة الثانية: هي التي تركِّز على البُعد الفرديِّ في الموت، ويرجع الأصل في التصوُّر حسب الشيخ شفيق جرادي إلى سيطرة التصوُّر المسيحيِّ على الفكر الذي يطابق إلى حدٍّ بعيد بين النفس والجسد. فالموت عند علماء اللَّاهوت المسيحيين يأخذ ثلاث معان:».. الموت الطبيعيّ الذي هو نهاية الحياة العضويَّة، ثم هناك موت روحيّ يعبرِّ عنه وضع الإنسانيَّة خارج الإيمان المسيحيّ، وأخيراً موت صوفيّ، وهو المشاركة في الحياة الإلهيَّة التي تجري خلال الوجود الأرضيّ على الرَّغم من الموت الطبيعيِّ، وقد جعل المسيح الوصول إليها ممكنًا»[3]. وقد أسَّست هذه الرؤية للنزعة الفردانيَّة عند الغرب والتي ساهمت في ظهور نزعة إلحاديَّة تدعو إلى رفض المعتقدات الدينيَّة، وفلسفة ما بعد الحداثة ليست إلَّا نتيجة حتميَّة لهذه الفردانيَّة.

---

[1]- المصدر نفسه، ص:224.

[2]- شفيق جرادي، يقظة الموت، مجلَّة «المحجَّة»، معهد المعارف الحكّميَّة، العدد: 17، السنة 2008، بيروت ص.ص:19-20

[3]- المصدر نفسه، ص: 25.

علوم المبدأ LLMOLMABDAA
العدد التاسع - 1446هـ - ربيع 2024م

أنواع الموت

عملاً بالدلالة المنطقيَّة لكلمة إنسان، والتي تشمل كلَّ كائن يملك حياة متفرِّدة تمنحه ذاتيَّة وأنطولوجيَّة متعيّنة في عالم المادَّة، وفي الآن نفسه تتقاطع مع الذوات الاجتماعيَّة في صفات، وكما قيل نحن نشبه الجميع في بعض الصفات، ونشبه البعض في بعض الصفات، ولا نشبه أحدًا في بعض الصفات، فما ينطبق عليه مفهوم إنسان يشمل الفرد كفرد، والجماعة أيضًا، وإذا كان الموت واقعة طبيعيَّة فهو بالضرورة واقعٌ بالتحقُّق إضافة إلى الطبيعة على عالم الأفراد والجماعات. ولكن موت الأفراد محكوم بقوانين وسُنَن طبيعيَّة تمَّت معرفتها أو هي قيد البحث، أمَّا موت الجماعات فيعود الى دوافع بشريَّة غير طبيعيَّة تتَّخذ من التسلُّط وحبِّ السطوة عنوانًا له، ويغلب على هذا النوع من التصنيف الملمح المادّيّ. وهناك من يصنِّف الموت وأنواعه وفقًا لرؤية أخلاقيَّة وروحيَّة مثل المدارس الصوفيَّة والعرفانيَّة حيث تعتمد الموت مدخلاً للتربية والتنشئة الأخلاقيَّة، وسنحاول الوقوف عند بعض هذه التصانيف:

الموت الإراديّ

باعتماد منحى نظريَّة التواضع والاصطلاحيّ في تأسيس الُّلغة من حيث الحدود، والبنية الصرفيَّة والتركيبيَّة، فإنَّ الدلالات التي تأخذها الحدود والكلمات في أيِّ لسان تتلوَّن وفقًا لمقاصد الجماعة الُّلغويَّة الأولى والتي ترسم معالم التفكير عند الأفراد المنتمين إلى هذا اللسان، والدلالة التي تلحق بالموت عند ورود الإرادة والقصد تكون أخلاقيَّة تربويَّة، والتقاطع الموجود بين الشرائع السماويَّة والنظريَّات الأخلاقيَّة التربويَّة ينمُّ عن وحدة في الأصول والمقاصد. ويلاحظ أنَّ التفكير الفلسفيَّ يعرِّف الفلسفة بأنّها مواجهة الموت أو على حدِّ تعبير شارل دي مونتاني هي: «أن نتعلَّم كيف نمـــوت»[1]. وهذه العبارة تتقاطع مع التصوُّرات العرفانيَّة التي يلخّصها النصُّ النبويُّ: «موتوا قبل أن تموتوا»[2].

فتزكية النفس وتهذيبها يستلزمان مخالفتها أوَّلًا، والعمل بروح الشريعة التي تضع المقاصد العليا للنفس كمداخل رئيسة للرقيِّ الأخلاقيِّ، وبه يتحقَّق القصد النبويُّ: موتوا - أي تجاوزوا الغرائز والشهوات - قبل أن يقع الموت الذي هو فقدان الحياة.

أقسام الموت الإرادي

-**الموت الأبيض:** هو عبارة عن الجوع الذي ينوّر الباطن، ويحيي الفطنة.

[1]- مونتاني، شارل دي، ترجمة: فريد الزاهي، دار معنى للنشر والتوزيع، 2021، ص:175.
[2]- المجلسي، بحار الأنوار، ج:69، ص: 59.

-**الموت الأخضر:** هو رفض التجلبب بلباس الدنيا وزينتها، ولبس المرقَّع كتعبير عن الانقطاع عن لبوس أهل الدنيا.

- **الموت الأسود:** هو القدرة على مواجهة أذى الخلائق والصبر عليهم من دون الوقوع في شراك البغض لهم؛ إذ يحفظ في أصالة نظرته إليهم كلَّ عناصر الحبِّ لله سبحانه وحبّ آثاره في خلقه».[1]

الموت اللَّاإراديّ

الموت الجماعيّ - الحرب

إذا كان الموت الفرديُّ حالة طبيعيَّة حتى ولو تعدَّدت الأسباب في إيقاعه أي حصوله لعلّةٍ في الجسم، أو خلل في المنظومة الوظيفيَّة للأعضاء، فإنَّ الموت الجماعيَّ استثناء في الطبيعة بحكم اجتماعيَّة الأسباب والدوافع. إنه ما يقع على جماعة بشريَّة، والإبادة التي تمارسها الحركة الصهيونيَّة في فلسطين المحتلَّة، والتي لم يلتزم الصهاينة فيها بأيِّ شريعة إنسانيَّة أو دوليَّة؛ فالحروب ليست إلَّا مظهرًا من مظاهر الموت، أو هي الموت بعينه، وما يعنينا في هذه الجزئيَّة مسألة قرار الحرب الذي لا يعير أيَّ اهتمام لرأي وتطلُّعات الشعوب، والذي يعكس الرؤية المكيافيليَّة[2] في السياسات الدوليَّة، ولو راجعنا الحروب تاريخيًّا لوجدنا أسباب اندلاعها لا يخرج من الدائرة الشخصيَّة أو الاثنيَّة، وفي العصر الحالي تعمل مجموعة خبراء على التخطيط لهذه الحروب أو الموت الجماعيِّ انطلاقًا من رؤية سياسيَّة واقتصاديَّة بحتة. فالحرب - على حدِّ تعبير لويس فانسان توماسlouis vincentthomas - «مؤسَّسة اجتماعيَّة مميتة للغاية، تديرها هيئات اجتماعيَّة مميّزة تسعى لتحقيق غايات متعدِّدة الأشكال قد يكون وجهها الأساسيُّ تدمير الإرث الديموغرافيّ: رفع مفاجئ في عدد الوفيات، خفض نسبة المواليد، استبعاد مستقطب لرجال في أوج نشاطهم ممَّا يعدِّل في هرم الأعمال لصالح المسنين والنساء»[3] فالحرب كموت جماعي تطرح تساؤلات قبلية وبعدية، تتعلَّق القبليَّة بدوافع الحرب وعلاقتها بالطبيعة البشريَّة فهل هي نتاج تلقائيٌّ للأنانيَّة البشريَّة، فتكون الحرب هي حرب الكلِّ على الكلِّ كما ذهب في ذلك توماس هوبز؟ وهل الحرب هي العلاقة الحقيقيَّة بين دولة ودولة كما يقول فلاسفة الإغريق.

موت الثقافات والإثنيَّات

قديمًا كانت الحرب تدخل على المجتمعات والشعوب المستضعَفة ضمن سياسات الاستعمار

---

[1]- شفيق جرادي، المصدر نفسه، ص: 17.

[2]- نسبة إلى نيكولا مكيافيلي، صاحب كتاب «الأمير».

[3]- لويس فانسون توماس، الموت، ترجمة مروان بطش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر «مجد» ، 2012 ، ص:13.

على قاعدة الأطماع الاقتصاديَّة واستغلال هذه الشعوب كمادَّة عاملة، أو كعبيد، وإن كان الاستعباد بالأصل ظاهرة اجتماعيَّة أفرزتها عوامل عدَّة أهمها الحروب، والتمييز العنصريُّ في أميركا مظهر من مظاهر التقزيم والاستعباد، يحضر بقوَّة في العلاقات الاجتماعيَّة، وفي المنظور السياسيِّ الذي تتبَّناه في سياساتها الخارجيَّة. فالقضاء على الهنود الحمر هو قضاء على أمَّة ذات ثقافة، وسنستأنس بمثال هو غيض من فيض:» لقد كان هنود البرازيل يعدُّون بالملايين إلَّا أن عَّددهم اليوم لا يتجاوز مئة ألف. وشهدت طوال العشرين سنة ماضية عمليَّة قتل إثنيَّة بالتواطؤ مع مكتب حماية الهنود. فقد اطَّلعنا على سياسة الإبادة التي مورست، على سبيل المثال، بحقِّ قبيلة «سينتاس لارغاس» التي تعيش بالقرب من نهر «أريبوانيا» وبموجبها تم قصف مركز القرية في يوم «الكاروب»Quarup، وهو عيد الأحياء والأموات تجري فيه عروض مستمدَّة من الأساطير، واستُخدم قتلة مأجورون كان رئيسهم معتوهًا ساديًّا ومهووسًا جنسيًّا».[1]

ويجدر القول أنَّ العولمة بحدِّ ذاتها حرب على الثقافات المحليَّة، وثقافة أميركيَّة صهيونيَّة تروم الإقصاء والقضاء على كلِّ مميَّز حضاريٍّ يمكِّن الأمم من النهضة والمواجهة. فالحرب على المقاومة ليست حربًا عسكريَّة فحسب، بل هي أيضًا صراع وجود بين أمَّة أدركت المقاصد من وجودها، وتعرَّفت على سوالب الوجود التي تظهر في الاستلاب الاقتصاديِّ والسياسيِّ الذي تمارسه رائدة العولمة أميركا وطفلتها المدلّلة الدولة الصهيونية في تدجين الأمم والمجتمعات، حيث لم تقف فقط عند الدول العربيَّة بل تعدَّته إلى الدول الغربيَّة أيضًا، والسياسة الخارجيَّة لهذه الدول تثبت ذلك. فالقضاء على الثقافات والإثنيَّات في سلَّم الأولويَّات الرئيسة عند الدول الكبرى؛ والموت الفرديُّ يصبح مجرَّد لعبة أطفال بالنسبة إلى الموت الجماعيِّ الذي هو قضاء على المئات والآلاف من البشر، واستعبادهم جسديًّا وجنسيًّا، وثقافيًّا، وتاريخ الحضارة الغربيَّة الاستعماريُّ كافٍ للتدليل على هذا النوع من الموت.

الموت الفرديّ

من النتائج الرئيسة التي توصَّلنا إليها من المقاربة الُّلغوية والأنثروبولوجيَّة، وفي استعراضنا للتصنيفات التي تتناول الموت كظاهرة وجوديَّة، أنَّ الموت يقابل الحياة. وقد كان مخاض سؤال الحياة منظومة معرفيَّة متميّزة عُرفت بعلم الحياة أو البيولوجيا، حيث كانت البدايات الأولى لعلم البيولوجيا والمبدأ السائد آنذاك في تفسير الطبيعة سببًا في تمظهرها الفيزيقيِّ، والغائيَّة في التجلّي الحيويِّ العضويّ. وهو ما نجده في التعبير الأرسطيِّ: الطبيعة الفيزيقا خاضعة لمبدأ العليَّة، والحياة تخضع لمبدأ الغائيَّة.

[1]- المصدر نفسه، ص:16.

والواقع أنَّ البيولوجيا أو علم الحياة عرفت تأخُّرًا نظريًّا ومنهجيًّا عن ركب العلوم التقنيَّة، والذي يرجع بالدرجة الأولى إلى غموض الرؤية حول مفهوم الحياة نفسها، لدرجة أنَّ الكثيرين من العلماء اجتنبوا الولوج في جدل الدلالة. فسؤال المفهوم من اختصاص الفيلسوف وليس من صلاحيَّات العالم، وهذا الذي جعل من المقاربات الفلسفيَّة حاضرة في أغلب الدراسات الحيويَّة (البيولوجيا) والذي يدلُّ على وجوب تطوير الدراسات البينيَّة على قاعدة التداخل الموجود بين جميع النُّظم المعرفيَّة.

وباعتماد التصوُّر القائل إنَّ الحياة جملة الوظائف التي تقاوم الموت، فإنَّ النشاط الوظيفيَّ الذي يتقوَّم به العضويَّة هو الحياة، أو أرضيَّة قاعديَّة للحياة؛ فالدخول إلى عالم الحياة يتحقَّق من خلال توفُّر جملة ظواهر تمنح الكائن الحياة وقابليَّة الاستمرار والتطوُّر في الوجود. فالحياة إذن ظواهر مستقلَّة، وفي بنيتها التركيبيَّة هي جملة من الوظائف، ولهذا سنقف عند بعض المقاربات العلميَّة والطبيعيَّة للموت الفرديِّ، والتي ستكشف لنا عن مستوى الغموض الذي يكتنف الظاهرة الموت، فغياب أسباب التفسير تجعل من الفرضيَّات العلميَّة مجرَّد تصوُّرات نظريَّة تقترب إلى الميتافيزيقا منها إلى العلم.

وفي فذلكة الجزئيَّة نقول إنَّ الرؤيا التي تبنَّاها الاتِّجاه العلميُّ محصورة في التصوُّر الآليِّ الحيويِّ الذي توارثه علماء الأحياء، ولكن المنظور الإسلاميَّ للجسد يجانب كثيراً النزعة الميكانيكيَّة الإحيائيَّة، فالنماذج الحيَّة وفقًا للمنظور القرآنيِّ تفيدنا بوجود أبعاد أخرى في البدن الإنسانيِّ، والتي تساعدنا في فهم أنطولوجيا الوجود الإنسانيِّ بعد الموت، وهو ما نعرفه بعالم البرزخ.

حريٌّ القول أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان على أربع صور[1]:

الأولى: خلق آدم(ع): خلق الإنسان من دون ذكر أو أنثى، والتي يصطلح عليها ابن طفيل بـ«التولُّد الطبيعيّ»، وتفيد بأنَّ آدم(ع) تكوَّن وفقًا لعوامل طبيعيَّة بحتة، والتي يعود فيها الجسد إلى الطين ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ**﴾ [الأنعام: الآية: 2].

الثَّانية: خلق الإنسان من ذكر من دون أنثى، كخلق حواء من ضلع آدم (ع)، والتي تعتمد فيها مدرسة السنَّة والجماعة الدلالة المتضمّنة في الآية الكريمة: ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها** ﴾ [النساء: الآية:1].

الثَّالثة: خلق الانسان من دون ذكر، كخلق عيسى (ع) الذي ولد من مريم عليها السلام من دون

[1]- يُنظر كتاب: الصاوي الصاوي أحمد «ميتافيزيقا الموت عند فلاسفة الإسلام»، دار المعارف، ص:12.

ذكر، وهي من الآيات المعروفة ﴿ **قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا**﴾ [مريم: الآية:20-21].

الرّابعة: وهي الصورة المعهودة، التي تخضع للسُّنَن الكونيَّة العامَّة، أي الميلاد من أب وأم.

ما نستخلصه من عرض لهذه الصور أنَّ كيفيَّة الخلق وشروطه تختلف وتتعدّد، وعليه يصعب علينا فهم ظاهرة الموت لامتناع معرفة الشروط الأولى للتكوين والخلق، لأنَّ صور الموت متعدّدة، وإذا اعتمدنا النصوص القرآنيَّة – على سبيل المثال – إحياء الموتى وإماتة بعض الأحياء (معجزات عيسى (ع))، فهي تنبئنا بوجود حلقات مفقودة في سلسلة الخلق والموت تستدعي من المؤسَّسات العلميَّة الاجتهاد في البحث عنها.

لا ريب في أنَّ التصوُّر المتعارف عليه للموت في الحقل العلميِّ يتعلَّق بموت الدماغ، والذي اعتمد فيه على توقف الدماغ عن العمل بسبب نقص الأوكسيجين، فهو على حدِّ تعبير العلماء:» الموت البيولوجيُّ أو زوال الفرد الحيِّ وانخفاض توتُّره الطاقيِّ والفعَّال إلى درجة الصفر، في التوقُّف الكامل والنهائيِّ، أي غير القابل للعكس، لوظائفه الحيويَّة وخصوصًا على مثلَّث الدماغ - القلب - الرئة، ويتبع فقدان التماسك الوظيفيِّ الإلغاء التدريجيُّ للوحدات النسيجيَّة والخلويَّة.»[1]

من هنا، فإنَّ الولوج في عالم الموت النظريِّ، أي في البحوث الأكاديميَّة، ينبئ عن الغموض الذي يكتنف هذه الظاهرة، وصعوبة الوقوف عند تفسير دقيق لها، وهذا ما يؤكِّد أطروحتنا أنَّ الدراسات العلميَّة للموت لا تخرج من دائرة الميتافيزيقا أو عالم النظر المجرَّد رغم اعتمادها منطلقات تجريبيَّة. وللتوضيح أكثر نلمس في تصنيف الموت الذي ذكره لويس فانسون توماس في كتابه: الموت في الحياة، الموت بحصر المعنى (نهاية الحياة)، الموت في الحياة الموت بعد الموت.

الموت في الحياة

يقصد بالموت في الحياة الشروط العضويَّة والاجتماعيَّة التي يترتَّب عليها الموت، ومن الأمثلة في ذلك:» إنَّ مناخًا غير صحيٍّ وتغذية سيّئة مثل الإفراط في تناول الشحوم أو البروتينات، ونقص الفيتامينات والإسراف في تناول الكحول، وكذلك العمل الشاقّ، وعدم الحفاظ على الصحَّة العامَّة، وغياب وسط اجتماعيٍّ مدرك وعطوف يحرِّض النشاط الذهنيَّ بوساطة التواصل والتبادل.. تؤدّي إلى شيخوخة مبكرة وقاسية».[2]

[1]- لويس فانسون توماس، الموت، مرجع سابق، ص. ص: 18-19.

[2]- المصدر نفسه، ص:26.

الموت نهاية الحياة

أمَّا الموت بالمعنى الحصريِّ، أو ما يُعرف بنهاية الحياة والذي يُستبعد منه الموت المفاجئ والموت المتعلّق بالحوادث الطبيعيَّة وغيرها، فهذا النوع، وإن كان هو الأصل في مسألة الموت، له دلالات وتجلِّيات متعدِّدة تؤكِّد غموض المعنى ونسبيَّة التفسيرات العلميَّة، ويشمل »:

الموت الظاهريّ أو النسبيّ: هو نوع من الإغماء لفترة يرافقه فقدان الحسِّ وزوال التوتُّر العضليِّ.. ويمكن العودة منه إلى الحياة. وهنا يميِّز الأطباء بين وجهين للموت في فترة ما بعد الولادة هما الشكل الأزرق أو الاختناقيُّ حيث لا يصرخ الطفل ويظلُّ بلا حراك، والشكل الأبيض وهو أكثر ندرة وأكثر خطورة حيث يصير المولود كلون الشمع وملطَّخًا ببقع داكنة..

الموت السريريّ: هو غياب الأهليَّة للحياة المتكاملة. بيد أنَّ ردود فعل الأنسجة الإنجاعيَّة تظلُّ موجودة بحسب بعض الشروط، وتظلُّ العودة إلى الحياة ممكنة ما لم تتجاوز فترة توقُّف تروية الدماغ المصيريَّة لـ 5 إلى 8 دقائق.

الموت المطلق: هو حاصل حالات الموت الوظيفيِّ والعضويِّ والجزئيِّ وغير القابل للانعكاس في الوضع الحاليِّ للعلم وبموجب اتفاق الهيئات الدوليَّة..».[1]

فذلكة القول أنَّ البحث العلميَّ الحديث والمعاصر لم يبلغ بعد الدلالات القطعيَّة للموت، فبتعدُّد الحالات تتعدَّد العلل، ويغادر اليقين النتائج العلميَّة إلى عالم الميتافيزيقا.

الموت بعد الموت

أمَّا الموت بعد الموت فيقصد به بقاء بعض الأعضاء في نشاط على قاعدة الموت الدماغيِّ الذي يقرِّر موت الفرد. فالأعضاء تموت تدريجيًّا بعد الموت الفعليِّ، ولكلِّ عضو مدّة معيَّنة للتحلُّل، « وبشكل عام، وبعد مرور 12 إلى 15 شهرًا، يظهر الهيكل العظميُّ وهو لا يزال محتفظًا ببقايا أنسجة وأربطة عظم وأوتار وأوردة دمويَّة مليئة بالطفيليَّات»[2].

يعني ذلك أنَّ الموت بشكل قطعيٍّ لا يكون حين معايشة الموت، أو ما نصطلح عليه بمغادرة الحياة، فبقاء الأعضاء أو بعض منها في حالة نشاط يفتح المجال أمام إمكانيَّة العودة إلى الحياة.

ميتافيزيقا الموت:

الأصل تاريخيًّا في نحت اصطلاح الميتافيزيقا كان بتعالي بعض المضامين والمقالات الأرسطيَّة

---

[1]- المصدر نفسه، 29-30.

[2]- لويس فغانسون، الموت، مصدر سابق، ص:33.

عن المسائل الطبيعيَّة التي تملك تعيُّنًا أنطولوجيًّا في عالم الطبيعة. والموت كحدث يقع على الظواهر الطبيعيَّة والإنسانيَّة يملك حضورًا في العالمين، ولكنَّ معاينته أو الشعور به أمرٌ مستبعد، إذ يستحيل التعبير عنه بعد الشعور به، فهو حضور غائب، وبسِنخيَّة ندِّية تتعالى على كلِّ تعيُّن، وتتمنَّع عن الحقيقة. وانطلاقًا من هذا البعد، يكون الموت ميتافيزيقا واقعيَّة، وشهودًا غائبًا، وسنعمل على عرض ملامح هذه الميتافيزيقا من خلال الجزئيَّات التالية:

الموت أصل الحياة

يصطلح الأستاذ الصاوي على هذه المرحلة بـ الموت في عالم الذَّرِّ[1]، وتعني وجود البشر في عالم قبل عالم الحياة، وفيه كان الإنسان ميتًا، بدليل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: الآية:28]. فمن خلال الآية الكريمة يتبيَّن أن الموت الذي نعرفه ونعايشه ليس تجربتنا الأولى مع الموت بل هو واقعة حادثة ثانية، ولكنّنا نجهل تلك المرحلة، فهي على حدِّ تعبير الشعراويِّ:».. مرحلة سابقة ولاحقة، بمعنى أنَّنا كنَّا أمواتًا قبل أن نأتي إلى هذه الدنيا.. وعندما نأتي تبدأ دورة الحياة ثمَّ نعود أمواتًا مرَّة أخرى»[2].

وعليه، يكون الموت الأصل الأول الذي تبعث منه الحياة، يقول الصاوي:».. الأصل هنا بالسبق هو الموت، لأنَّنا قبل هذه الحياة الدنيا كنَّا مخلوقين أمواتًا في عالم الذَّرِّ، أو في عالم الموت، بدليل أنَّ الله تعالى كلَّمنا وأشهدنا على أنفسنا، وأخذ علينا العهد، وهذا يدلُّ على أنَّ الموت ليس عدمًا، ولكنَّه انتقال من عالم له قوانينه إلى عالم له قوانين أخرى. وهذا الانتقال لا يتمُّ إلَّا بإذن الله تعالى»[3].

وبما أنَّ عالم الذَّرِّ سابق للوجود الإنسانيِّ الرَّاهن فمعرفته وتفسيره يكونان مجرَّد افتراض، وعلى قاعدة الاختلاف الكلاميِّ تختلف الرُّؤى الى هذا العالم. مدرسة أهل البيت عليهم السلام مثلًا، تمنح أبعادًا أعمق وأوسع لعالم الذَّرِّ، فهو عندها:».. واحد من تلك العوالم إذا لم يكن أهمَّها بالنسبة لرحلة الإنسان الوجوديَّة، فهو عالم سابق لعالم الدنيات، حينما بدأ أول ظهور الخلائق من نشأة الطين، ففيه ظهرت أول أنماط الحياة متساوقة مع فترة ما قبل الوعي وفترة ظهور الوعي، ويأتي بعد الذَّرِّ عالم الدنيا حيث ظهور الخلائق من نشأة الأصلاب والأرحام والأجساد الدمويَّة اللَّحميَّة».[4]

ما نستخلصه من هذه الإشارة أنَّ فهم أو تفسير عالم الموت يبقى مفتوحًا على الاحتمال والفرض، وبعيدًا كلَّ البعد عن السياق اليقينيِّ والقطعيِّ، لأنَّ الفهم الموضوعيَّ يقتضي منا فهم

[1]- الصاوي، الصاوي أحمد، ميتافيزيقا الموت عند فلاسفة الإسلام، دار المعارف، مصر، 2024، ص: 8.

[2]- الشعراوي، محمد، الحياة والموت، مكتبة الشعراوي الإسلاميَّة، ص:74.

[3]- الصاوي، مرجع سابق، ص: 9.

[4]- رعد عبد السادة علي، عالم الذَّرِّ، دار القارئ، لبنان، 2019، ص:13.

الظاهرة في سياقها الكليّ، وليس التجزيئي، ولهذا نجد من الضروري فهم عالم الذَّرِّ لأنه مدخل رئيس لفهم مادة الوجود وغاياتها في عالم الدنيا، وعلى هذا الأساس نلحظ اكتناف الغموض جميع التصوُّرات الإنسانيَّة حول الموت الذي يبقى عصيًّا على الفهم والتفسير، فالوجود الإنسانيُّ: رحلة ابتدأت من الذَّرِّ حين أصبح له وجود، ثمَّ نزل إلى عالم الأصلاب، ثم إلى النُّطف، ثمَّ إلى الأرحام، ثمَّ إلى الدنيا. فالذَّرُّ رحلة من التكوين إلى التخليق، ومن التخليق إلى الأصلاب والأرحام، والدنيا رحلة من الرَّحم إلى القبر، والرجعة رحلة من القبر إلى النَّفخ الأول في الصُّوْر، والآخرة رحلة من النَّفخ الثاني إلى الذَّرِّ حيث الأبديَّة.[1]

الموت نهاية الحياة

يشكِّل الموت في هذه المرحلة هاجسًا وانشغالاً يبعث على القلق عند الإنسان، والدليل على ذلك جملة الكتابات والرسائل التي تركها الفلاسفة مثل: رسالة المبدأ والمعاد، رسالة في دفع الغمِّ عن الموت، للشيخ الرئيس ابن سينا، ورسالة في الحيلة لدفع الأحزان للكندي. ولم يحتكر الفلاسفة وحدهم هذا الموضوع بل كان على رأس اهتمامات علماء النفس أيضًا، فقلق الموت أصبح من الظواهر الرئيسة التي اشتغلت عليها المدارس الفكريَّة.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الرُّؤى الإنسانيَّة حول الموت لا تخرج من دائرتين: الأولى تعكس الفرضيَّة القائلة بأنَّ الموت نهاية وعدميَّة لكلِّ ما يعبرِّ عن الحياة، أمَّا الثانية فترى الموت مرحلة انتقاليَّة لحياة أخرى تبقى في حكم الافتراض. وقد عبرَّت جميع الأمم عن رؤيتها في طقوسها الجنائزيَّة أو في مصادرها المكتوبة مثل كتاب الموتى[2]* الذي يُعدُّ من أقدم ما كتب في الموت، ويندرج ضمن الاسكاتولوجيا أي علم عالم ما بعد الموت. وما يهمُّنا في الطقوس هو الاعتقاد بوجود حياة أخرى، أمَّا التفسيرات للرُّموز، وللطقوس ففي اعتقادنا تبقى مجرَّد افتراضات، وحسب علم المصريَّات égyptologie وتاريخ الحضارات فإنَّ المجتمع المصريَّ يُعدُّ من أقدم المجتمعات التي اعتقدت بخلود النفس كما يقول هيرودوت. وقد ورد في النصوص المنقوشة على الأهرامات، والتي يرجع تاريخها إلى الأُسر الأولى، أنَّ الأنفس خالدة لا تموت أبدًا».[3]

ومن بين المقاربات التي مُنحت للموت تشبيهُه بالنوم، فقد صوَّر: « قدماء اليونان النوم Hypnos على أنَّه أخ توأم للموت Thanatos، كما أنَّ اليهود السنيين وهم يستيقظون من نومهم في الصباح

---

[1]- المصدر نفسه، ص:24.

[2]- يعود إلى العصر الطيبيِّ أي عصر الدولة الفرعونيَّة الحديثة (يُنظر: كتاب الموتى برت ام هرو. نقله من الهيروغليفيَّة سير والس، ونقله إلى العربية فيليب عطية، مكتبة مدبولي 1988.

[3]- يوليوس، جبار، لويس ريتر، الطبُّ والتحنيط في عهد الفراعنة، تعريب أنطون زكري، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 2008، ص: 108.

يشكرون الله على أنَّه أعادهم إلى الحياة مرَّة ثانية. كذلك صوّر القرآن الكريم النوم بأنَّه الوفاة الأولى للإنسان في الحياة ولكنَّها وفاة مؤقَّتة...»[1].

ما بعد الموت

يبدأ السؤال عن ما بعد الموت حين نعايش موت أحبَّتنا لأنَّ من يشعر بالموت ليس هو الذي يروم معرفته، بل الذي انتقل من لحظة المائت إلى مرحلة الميت، فعالم ما بعد الموت عالم غيب بالنسبة إلى الأحياء، ووجود بالنسبة إلى الأموات، وقدَّم الموروث الدينيُّ جهازًا مفهوميًّا عبرَّ عنه بعالم البرزخ، والآية الكريمة تشير بوضوح إلى وجود هذا العالم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون، الآية:99-100].

عالم البرزخ عالم مستقلٌّ بقوانينه ونظامه الخاصُّ، فهو عالم مفتوح على التأويل لا يمكن الوقوف فيه على الحقائق على قاعدة تعالي هذا العالم عن حيثيَّات الوجود المادّيِّ، ويبقى النصُّ الدينيُّ المرجع الوحيد المخوَّل في تقديم دلالاته، إذ يمكن استقراء بعض معالمه من خلال استنطاق النصوص: القرآن الكريم، وروايات أهل البيت عليهم السلام عن النبيِّ الأكرم(ص).

وعلى حدِّ تعبير العلاَّمة الطباطبائيِّ، فإنَّ البرزخ «عالم يقع بين العقل المجرَّد، والمجرّدات المادّيَّة، وبناءً على هذا، فإنَّه عالم موجود، لكنه ليس مادَّة، رغم أنَّه يحمل بعض صفات المادَّة، مثل المقدار والشكل والعرض الفعليّ»[2]. ثم إنَّ المعالم الحسّيَّة المادّيَّة التي ترد في وصف هذا العالم لا تجعل منه عالماً مادّيًّا يحاكي عالم الدنيا، بل هي ضرورة أنطولوجيَّة، وديداكتيكيَّة. فمن حيث السياق الأنطولوجيِّ لا يُدرك وجود الأشياء إلاَّ بأبعاد: طول، عرض، ارتفاع، بروز. وعليه، فالتعبيرات الحسّيَّة للأشياء المتمكنّة ضرورة وجوديَّة في إدراك عالم البرزخ.

أمَّا المنحى الديداكتيكيِّ التعليميِّ في المسألة فمحكوم بنسبيَّة الإدراك عند عموم البشر، ذك أنَّ أسلوب الترغيب والترهيب يوظَّف كآليَّة منهجيَّة في تهذيب البشر، ولهذا نلاحظ أنَّ مضامين عالم البرزخ متعلِّقة بالحساب، والثواب، فالآية الكريمة ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ [المؤمنون: الآية:100] تبيِّن أنَّ عالم ما بعد الموت هو البرزخ بدليل تضمُّن النصوص قرائن لغويَّة تدفع إلى التمييز بين العالمين: عالم ما بعد الموت، وعالم ما بعد الساعة. فالنار التي يُعرضون عليها هي، كما يقول الطباطبائيُّ، نار الآخرة، لكن الشخص الذي يُعرض عليها هو في عالم البرزخ. وعندما يُقال إن بابًا تفتَّح في القبر، على نار جهنم، ليدخل منها بعض لهيب النار، فذلك يعني أنَّ نار البرزخ

[1]- أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، عالم المعرفة، الكويت، العدد:111، السنة :1987، ص:39.

[2]- الطباطبائي، حسين، حياة ما بعد الموت، ترجمة: سالم مشكور، دار التعارف للمطبوعات، ص:25.

هي عيّنة من نار الآخرة، وعذابه نموذج من عذاب الآخرة..»[1]. وعليه، يبقى عالم البرزخ وجودًا مجرَّدًا غير محدَّد المعالم.

خاتمة

نختم بالقول أنَّ الموت غياب في عالم الشهود، وحضور في عالم الغيب، فهو ليس معطى ميتافيزيقيًّا فحسب، بل أيضًا هو أسُّ الميتافيزيقا وعينها. فإذا نظرنا إليها من حيث عمق الغموض والإشكاليَّات التي تلّف القضايا التي تصبح مؤهّلة لإدراجها ضمن الميتافيزيقا، يكون الموت تجسيدًا للحقيقة المتمنِّعة عن كلِّ تصوُّر بشريٍّ، ونسبيَّة العلم والمعرفة دليل على صعوبة المسألة وغياب كل امتلاك لجزئيَّة معرفيَّة حول الموضوع. وإذا نظرنا إلى الميتافيزيقا من عنصر المفارقة (Paradoxe) نرى الموت أصل المفارقة؛ فهو حقيقة فيزيائيَّة على قاعدة الحدث والواقعيَّة - عجزت العلوم التجريبيَّة عن فكِّ لغزها - وميتافيزيقيَّة في الآن نفسه بحكم رمزيَّتها وتجريدها كتصوُّر.

ولعلَّ ما يمنح الموت بعدًا إشكاليًّا أيضًا تنوُّع الدراسات والتخصُّصات التي تناولت الموضوع. فعلى مستوى الدين والتديُّن تحضر الإجابات الأولى للمسألة، والتي تلمس في نصوص العهد القديم والجديد، وفي الأساطير والملاحم. ومن التصوُّرات القديمة للقضيَّة النظرة التي تربط الموت بفكرة الخلود التي لازمت فكرة خلق البشريَّة في البداية، وتعرف بشجرة الخلد. لقد ألحق البشر بالأب آدم والأم حواء عليهما السلام مسؤوليَّة حتميَّة الموت على قاعدة ارتكابهما الخطيئة، وتطوَّر المفهوم في المعتقدات المسيحيَّة مع فكرة الفداء وتخليص البشر من الخطيئة، وأخذ الموت في الديانة الإسلاميَّة دلالات مجرّدة تارة، وحسّيَّة تارة أخرى، وإن كان النص القرآنيُّ واضحًا وفاصلًا، فالأصل في خلق الموت ليس في ذاته بل لغاية لاحقة ترتبط بما بعد الموت وهو الحساب والجزاء ﴿**تبركَ ٱلَّذي بِيَدِه ٱلمُلكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٖ قَدِيرٌ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلمَوتَ وَٱلحَيَوٰةَ لِيَبلُوَكُم أَيُّكُم أَحسَنُ عَمَلٗا وَهُوَ ٱلعَزِيزُ ٱلغَفُورُ**﴾ [سورة الملك، الآية:1-2]

والموت في التراث الإسلاميِّ خروج جميع معالم الحياة من الجسد، والنصُّ التالي مضمون ودالَّة من دلالات الموت وبالأخصِّ كحدٍّ يقابل الحياة:» عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال الحياة والموت خلقان من خلق الله، فإذا جاء الموت فدخل في الإنسان لم يدخل في شيء إلَّا وقد خرجت منه الحياة[2].

ويحمل النصُّ التالي دلالات متعالية وراقية للموت، وهو حديث مرويٌّ عن ابن ظبيان عن الصادق(ع) عن آبائه عن أمير المؤمنين (ع) قال: لمَّا أراد الله تبارك وتعالى قبض روح إبراهيم أهبط

[1]- المصدر نفسه، ص:27.

[2]- المجلسي، محمد باقر، حقيقة عالم الموت، تحقيق محسن عقيل، دار المحجَّة البيضاء، ص:8 .

الله ملك الموت، فقال السلام عليك يا إبراهيم ! قال: وعليك السلام يا ملك الموت أداع أم ناع؟ قال: بل داع يا إبراهيم فأجب. قال إبراهيم: فهل رأيت خليلاً يميت خليله؟ قال: فرجع ملك الموت حتى وقف بين يدي الله جل جلاله فقال: إلهي قد سمعت ما قال خليلك إبراهيم فقال الله جل جلاله: يا ملك الموت إذهب إليه وقل له: هل رأيت حبيبًا يكره لقاء حبيبه ؟ إنَّ الحبيب يحبُّ لقاء حبيبه».[1]

أجد في هذا النصِّ لطائف عرفانيَّة عميقة ودقيقة تعرِّفنا بجماليَّة غائبة للموت. فالمطلوب أن يكون عند الإنسان مطلبًا وليس مصيراً يتهرَّب منه، لأنَّ العودة إلى الأصل ضرورة لا تتعارض مع السُنن الكونيَّة للوجود، وإذا كنا نعتقد بوجود إله خالق رازق رعانا ونحن لا نملك أيَّ حول وقوة، ورزقنا بالقوَّة، ومتَّعنا بالصحَّة والعافية؛ فلم الخوف إذن من الموت، وهذه الرواية تنسف كلَّ قول وخطاب يجعل من الموت مرحلة خوف وقلق، فالحياة جميلة بنسبيَّتها في عالم الدنيا، وستكون أجمل في عالم الآخرة.

فإذا كانت حياتنا قبل الحياة غير معلومة ولم نخبر فيها أيَّ ألم أو قلق، فلمَ نخاف من مستقبل لا نعلم عنه شيئًا؟ تُعرف هذه المسلَّمة بمبدأ التساوق والذي يقارب فيه الفلاسفة عالم ما بعد الموت بعالم ما قبل الحياة، فالحياة في الماقبل وجود لم نعايش فيه أيَّ شعور أو أيَّ انفعال ولا نعلم شيئًا عنه، وكذلك عالم ما بعد الموت يفترض أن يكون محاكيًا له. فالقلق من الموت حالة غير طبيعيَّة إذا نظرنا إليها بمعيار السواء والاتزان، والشعور بالخوف والاضطراب النفسيّ منه ينبئ عن وجود حالات وجدانيَّة تتحدَّد تبعًا لتجربة شخصيَّة فرديَّة واجتماعيَّة، وهي تختلف حسب المحيط الاجتماعيِّ، وتتوارث عند الأجيال مكوّنة لا شعورًا جمعيًّا، والمضامين المشتركة بين الجماعات البشريَّة هي الخوف على الأبناء، ومفارقة المحبوب سواء كان متعلّقات ماديَّة أو علاقات اجتماعيَّة، والخوف من العقاب الإلهيّ وعذاب القبر وغيرها.. فكلُّ ثقافة مجتمعيَّة تغرس في أبنائها ما توارثته من الأسلاف عن الموت.

ولتجاوز هذا القلق أو هذه الحالات الوجدانيَّة المصاحبة لفكرة الموت، ينبغي إعادة النظر في ما نملك من أفكار، وحسب القراءة التأويليَّة للآية الكريمة: ﴿**فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ**﴾ [عبس، الآية: 24]، النظر إلى الطعام يقصد به الفحص والتدقيق في ما نعتقده من أفكار جاء في الميزان في دلالات الآية الكريمة: «ففيه توجيه نظر الإنسان إلى طعامه الذي يقتات به ويستمدُّ منه لبقائه وهو واحد ممَّا لا يُحصى ممَّا هيَّأه التدبير الربوبيُّ لرفع حوائجه في الحياة حتى يتأمَّله فيشاهد سعة التدبير الربوبيِّ التي تدهش لبَّه وتحيّر عقله، وتعلق العناية الإلهيَّة - على دقَّتها وإحاطتها - بصلاح

[1]- المجلسي، بحار الأنوار، ج6 دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1983، ص:127

حاله واستقامة أمره»[1]. فالاستقامة العقليَّة والأخلاقيَّة لا تكون إلَّا بمراجعة الأفكار والتصوُّرات.

والنصُّ العقديُّ مفتوح على التأويل، ولا يحقُّ القطع والجزم في أحقّيّته. فالعقائد التوحيديَّة أو ما تعرف بالديانات السماويَّة منظور إليها راهنًا ديانات تاريخيَّة، أي ديانات تعود إلى أزمنة سابقة، وبالتالي يستوجب على الباحث التدقيق في التعامل مع هذه النصوص، والاختلافات الموجودة داخل الديانة الواحدة دليل على ضرورة البحث المعمَّق في النصوص، وليس على فساد المنظومة المعرفيَّة التي تقوم عليها. ولهذا، فإنَّ المنظور الإسلاميَّ للموت ليس واحدًا، فالموت كظاهرة أو حالة وجوديَّة عند السلفيَّة – مثلاً – تثير الرُّعب والقلق والخوف من العالم الآخر، حيث يشعر بالندم والأسف لوجوده في هذا العالم، وكتيباتهم تعكس ذلك: أهوال القيامة، عذاب القبر وغيرها من تصوُّرات أقرب ما تكون إلى الإرهاب منها إلى النصوص الشرعيَّة. وفي المقابل، نجد في نصوص مدرسة أهل البيت (ع) اشتياقًا للموت وطلبًا له انطلاقًا من النصوص. والتراث الحسينيُّ الذي يؤرخ لاستشهاد الحسين (ع) في كربلاء يقدِّم أرقى دروس التضحية، ومعاني الحياة الحقيقيَّة متضمّنة في الاستشهاد أو الموت في سياق الرمزيَّة، وبقاء الإسلام كان مرهونًا باستشهاد الحسين (ع)، وهو المعنى المتضمّن في الحديث النبويِّ: « حسين منّي وأنا من حسين « فحسين من رسول الله صلى الله عليه وسلم واضحة ومفهومة، أمَّا أنا من حسين، فتفيد أنَّ استمرار الإسلام المحمديِّ لم يكن إلَّا بشهادة الحسين (ع).

الحديث عن الموت ليس إلَّا سياحة في عالم الكلمات والرموز، ويبقى أفقه مفتوحًا على التأويل، فكلُّ ما قيل ويُقال عنه لا يخرج عن هذه المساحات الفكريَّة: عقديَّة (دينًا كان أو تديُّنًا) أو علميَّة أو اجتماعيَّة.

[1]- الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلَّد العشرون، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1997، ص:229.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم

2. أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، عالم المعرفة، الكويت، العدد111، السنة 1987.

3. الشعراوي، محمد، الحياة والموت، مكتبة الشعراوي الإسلاميَّة.

4. الصاوي، الصاوي أحمد، ميتافيزيقا الموت عند فلاسفة الإسلام، دار المعارف، مصر، 2024.

5. بوساحة أحمد، حقيقة الموت في نظر الديانات، دار الانتشار العربي، بيروت، 2008.

6. جون اس مبيتي، الأديان الأفريقيَّة والفلسفة، ترجمة إيناس طه، المركز القومي للترجمة، 2023.

7. رعد، عبد السادة علي، عالم الذر، دار القارئ، لبنان، 2019.

8. لويس فانسون توماس، الموت، ترجمة مروان بطش، مجد، المؤسَّسة الجامعيَّة للدراسات والنشر، 2012.

9. يوليوس، جبار، لويس ريتر، الطب والتحنيط في عهد الفراعنة، تعريب أنطون زكري، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، 2008.

المعاجم والقواميس

1. ابن منظور، لسان العرب، المجلَّد الثاني، دار صادر الطبعة الثالثة، بيروت، 1414 هـ /1993 م الجرجاني، علي بن محمد بن علي التعريفات، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1983.

المجلَّات

1. أحمد ماجد، الموت في الحضارات القديمة، مجلَّة «المحجَّة»، معهد المعارف الحكْميَّة، العدد: 17، السنة 2008.